

آثار طريق البريد وعمائره بين القاهرة والقدس عبر سَيَّاء خلال العصر المملوكي

”دراسة آثارية في ضوء وصف ابن العطار والاكتشافات الأثرية الحديثة“

د. سامي صالح عبدالمالك البياضي*

قام مُحِبُّ الدين المعروف بابن العطار (ت حوالي ٨٨٠هـ/١٤٧٦م) بالسفر من مِصرَ إلى القُدسَ على طريق البريد عبر سَيَّاء، فوصف لنا أبردَ الطريق وعمائرها من القاهرة حتى وصوله إلى القدس الشريف، فقال فيما يتعلق بطريق البريد بين القاهرة والقدس: ”ذُكِرَتُ الأبردَةُ من مِصرَ إلى القُدسَ لَمَّا سافَرْتُ ورَأَيْتُ رَوْضَ رِياضِهِ الشَّقِيقِ، وتَمَيَّقَ حَرَمِهِ الأنيقِ، فجَاءَتِ عَلَيَّ وَفَّقَ العَرَضَ لِإِجابَةِ الأَخِ الشَّقِيقِ، فليُحسِّنَ الناظِرُ الإعتناءَ بِها ليُحصَلَ لهُ الرعايَةُ والتوفيقُ“.

وقد ذكر ابن العطار أن طريق البريد من مِصرَ إلى القُدسَ يشتمل على ثلاثين بريدًا، تبدأ من الخانكة وتنتهي عند القدس الشريف، وذلك كالآتي: الخانكة، البير الوسطى، بلبيس، قرية السعيدية، الخطارة، قبر الوالي، الصالحية، بير غزي، العاقولة، حبة، الغرابي، بلدة قَطِيَّا، ومنها طريقين: المخرص، بير البدوي، أو ساقية السلطان، المطيلب، وصولاً إلى السوادة، الورداء، سبخة البردويل، العريش، الخروبة، الزعقة، رفح، خان يونس، الدارون، غزة...، وصولاً إلى القدس الشريف.

أما المنشآت التي ذكرها ابن العطار في المنازل والمناهل على طول الطريق فهي بيت القصيد في بحثي هذا، فنجد أنها متنوعة مثل المنشآت الدينية كالجوامع، والمساجد، والمآذن، والمدارس، والقباب. والمنشآت المائية كالآبار، والفساقي ”البرك“ لحفظ المياه، والأحواض ”أحواض سقي الدواب“، والسواقي ”الدواليب“. والمنشآت الخيرية كالأسبلة ذوات القباب لتسييل المياه للسفار، والحمامات العامة. والمنشآت التحصينية الدفاعية كأسوار وبوابات المدن، وأبراج الحراسة، وأبراج حَمَام الزاجل. والمنشآت التجارية والمدنية والصناعية كالخانات بمخازنها، والدكاكين، والأسواق، والمقاعد، والبيوت، والطواحين، وأفران طهي الطعام، وسواها.

فمن أماكن البريد التي وصف عمائرها ابن العطار على سبيل المثال لا الحصر في سَيَّاء بلدة قَطِيَّا إذ قال: ”ثاني عشر: بلدة قَطِيَّا...، وبها جامعان وسوق وحمام وطاحون...“. ووصف ميناء الوَرَادَة فقال: ”السادسة عشر: الوَرَادَة بها خان خراب...“. كما وصف العريش والخروبة ورفح فقال: ”الثامنة عشر: العريش...، بالمنزلة خان وساقية وفسقية وحوض... التاسع عشر: الخروبة بها ساقية

* ألقى ملخص البحث ولم يقدم البحث للنشر بكتاب مؤتمر ٢٠٠٩ - المجلس الأعلى للآثار - مصر.

وحوض وسبيل وخان وفسقية معطلة ...، حادي عشرون: رفح بها أثر عمارة قديمة وعرب وجامع ومزار وساقية وحوض وسبيل بقبة ...“.

كما أنه ذكر أن أول من سير البريد بهذا النظام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، وذكر من قام بعمارة بعض من هذه المنشآت المختلفة الوظائف في منازل ومناهل طريق البريد من سلاطين وأمراء، فكان من السلاطين السلطان الصالح نجم الدين أيوب، والناصر محمد بن قلاوون ...، ومن الأمراء تمرباي ...، وسواهم. وقد ذكر لنا بعض قبائل سيّء ووظائفها في بعض منازل طريق البريد كقبيلة البياضية والأخارسة في قطيا وما حولها.

ويمكن أن نلخص من هذه الدراسة الحضارية - الأثرية لطريق البريد بين القاهرة والقدس الشريف عبر سيّء إلى أبرز النتائج الآتية:

- نشر نص تاريخي جد مهم في مجال الدراسات الأثرية والحضارية لأن واضعه قام بنفسه بالسير في الطريق، وقام بوصف كل بريد بما فيه من عمائر عن مشاهدة وتحقيق ومعاينة، وهو المنهج الذي ذكره صراحة عند تحقيق منازل درب الحَاجِ المِصْرِي في سنة ٨٦٦هـ/١٤٦٢م.

- المساعدة في تحقيق مراكز البريد على درب السلطاني في سيناء، وبالتالي يمكن توثيقها وتسجيلها قبل أن تأتي عليها مشروعات التنمية التي تشهدها المنطقة.

- تحقيق الأبردة على طول الطريق في عصر المؤلف ووضع خارطة أثرية واضحة المعالم على ضوء ما ورد في هذا المصدر المخطوط والأدلة الأثرية الباقية حتى يومنا هذا خاصة أن بعضها لا تزال تحتفظ بأسمائها التي وردت بها حتى الآن.

- عمل تصور أثري ومعماري لمنازل ومناهل البريد بما فيها من منشآت معمارية مختلفة الوظائف مما يساعد الأثريين عند القيام بالتحريات والحفائر الأثرية من تحقيقها على أرض الواقع من خلال تكامل المنهج العلمي بين ما ورد في وصف ابن العطار وما تم أو سيتم الكشف عنه من آثار باقية في هذه الأبردة.

- قدم لنا ابن العطار وصف معماري دقيق لبعض المنشآت على درب مما يساعد على تكوين فكرة معمارية معاصرة عن مخططات بعض العمائر كخان يونس ومقارنتها مع معاصرتها كخان الورادة الذي تم اكتشافه في سيّء حيث وصف خان يونس فقال: "خان يونس ليس بالطريق أحسن منه، بباب حديد، ورحبة كبيرة مبلطة بوسطها مصطبة، وفي كل جانب من جوانبه الثلاثة خمس بوائك، الوسطى كبيرة إيوان، وجهة الباب أربع بوائك، يميناه حاصل، ويسراه مسجد بمئذنة“.